خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٦/٩/١١

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

لقد تحدثت في الخطبة الماضية عن توكل النبي ﷺ على الله، واليوم أيضا سأتحدث عن الموضوع نفسه. يقول النبي ﷺ ناصحا المؤمنين بالتوكل:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ رسول الله ﷺ: "مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى، حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ صَادِقًا كَانَ بِهَا أَوْ كَاذِبًا".

كيف كان النبي ﷺ يدعو لنفسه بشأن التوكل؟ فقد جاء في رواية: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ إِذَا رَكَعَ قَالَ: "اَللّٰهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَدَمِي وَلَحْمِي، وَعَظْمِي وَعَصَبِي لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وفي رواية أخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا كَرَبَنِي أَمْرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَمْدُ لِلهِ الَّذِيْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيْرًا".

ورُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ أنه سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: "اَللّٰهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺحَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اَللّٰهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ: لَا إِلٰهَ غَيْرُكَ". (هذه الرواية وردت في صحيح البخاري)

وقد رُوي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ: "اَللّٰهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ".

كان النبي ﷺ يصوّب نظره إلى الله تعالى دائما، فقد قال سيدنا المصلح الموعود ﷺ في بيان صفته ﷺ العظيمة هذه، بل قال ﷺ في التفسير: "كان رسول الله ﷺ يتوكل على الله بحيث كان ينظر إليه ﷻ في كل مصيبة ووقت عصيب ويعرض عن كل من سواه. لا شك أنه ﷺ لم يُهمل الأسباب المادية مثل الصوفية المعاصرين (إذ يقول الصوفية المعاصرون إنه لا حاجة إلى الاستفادة من الأسباب، بل التوكل وحده يكفي) لأن ترك الأسباب بمنزلة تحقير خلق الله وعدِّ خلقِه لغوا. ولكن بعد اتّخاذ الأسباب كان النبي ﷺ يتوكل على الله تعالى كليا. فكان يتخذ الأسباب، ولكن ما كان يتوكل عليها قط، بل كان يعلّق جُلّ أمانيه على فضل الله وحده".

يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه ﷺ كان يدعو وقت الكرب: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ".

أي إنني أعتمد وأتوكل على الله وحده.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالَ الناس (في غزوة أحد أو حمراء الأسد أو عند غزوة خندق وغيرها): ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وهذه الرواية في البخاري.

كان مشركو مكة في مرات متعددة عرضوا على النبي ﷺ عروضًا مختلفة، أي طمّعوه بألوان من الإغراءات والمغريات، وكان النبي الكريم ﷺ يردّ عليهم متوكلا على الله بصورة عجيبة يندر لها نظير. فكيف كان ذلك؟ لقد ذكر ابن إسحاق إحدى هذه المرات قائلاً:

قال عتبة بن ربيعة، سيد قريش، يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسول الله جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمّدٍ فَأُكَلّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيّهَا شَاءَ وَيَكُفّ عَنّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ قُمْ إِلَيْهِ فَكَلّمْهُ فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي، إِنّك مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السّطَةِ[1] فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النّسَبِ وَإِنّك قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفّهْت بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ فَاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ". قَالَ يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْت إِنّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا

---

[1] السّطَة: الشرف.

الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوّدْنَاك عَلَيْنَا، حَتّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك، وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلّكْنَاك عَلَيْنَا؛ وَإِنْ كَانَ هَذَا الّذِي يَأْتِيك رِئْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدّهُ عَنْ نَفْسِك، طَلَبْنَا لَك الطّبّ، (كان هؤلاء متوهمين، فبالتالي كانوا يقولون: لعلّ جنًّا قد تلبّس به) وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبَرِّئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التّابِعُ[٢] عَلَى الرّجُلِ حَتّى يُدَاوَى مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. حَتّى إذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: "أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟". قَالَ نَعَمْ، قَالَ: "فَاسْمَعْ مِنّي".؛ قَالَ أَفْعَلُ، فَقَالَ: "﴿بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾". (فصلت ١- ٦)

لقوم يعلمون.. أي أنه لا يفيد إلا الذين يعلمون علمًا روحانيا.

بشيرا ونذيرًا: أي أنه مبشر للصلحاء ومنذر للطالحين.

فهم لا يسمعون: أي أنهم غير مستعدين حتى للاستماع إليه.

قلوبنا في أكنة: أي أن دعوتك لا تؤثر في قلوبنا.

ثُمّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آيةَ السجدة سجد، ثم قال لعتبة: "يا أبا الوليد، لقد سمعتَ ما سمعت، فالأمر إليك الآن." سمعتُ كلامك وسمعتَ كلامي، فاحكم أنت بما ترى، أما أنا فبم أحكم. وكان يقين رسول الله ﷺ التام وتوكلُه على الله تعالى يتجلى كل يوم بشأن جديد، فقد ورد في التاريخ أنه ﷺ ظل ثابتًا على موقفه بعد أن أجاب عتبةَ بهذا الجواب. ولم يقل "سأتغيّر"، بل قال له: "غيّر أنت نفسك واحكم بما شئت"، وظل ﷺ ينشر دين الله ويدعو إليه ﷻ.

ثم توجه وفدُ الكفار جميعًا، إلى أبي طالب وقالوا له: لقد طلبنا منك أن تكفّ ابنَ أخيك، فلم تكفّه، والآن إما أن تمنعه نحن من الكلام في شأننا، وإما أن نقاتله ونقاتلك حتى يهلك أحد الفريقين. فلما قالت قريش هذا لأبي طالب، طلب رسولَ الله ﷺ وقال له: "يا ابن أخي، لا تحمّلني ما لا طاقة لي به." فظنّ رسول الله ﷺ أن عمّه سيتخلى عن نصرته ويسلِّمه لقريش، فقال ﷺ له: "يا عمّاه، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركتُ واجبي، بل سأواصل عملي حتى يُظهره الله أو أهلك دونه." ثم قام ﷺ لينصرف، فناداه أبو طالب وقال: يا ابن أخي، اذهب فقل ما أحببت، فوالله لن أسلِّمك لهم أبدًا مهما أُعطيت من المكافأة.

وقد رسم حضرة المصلح الموعود ﷺ صورة هذه الأحداث من التاريخ – وهي أحداث حقيقية – بقوله: حين بدأ الرسول الكريم ﷺ يدعو الناس إلى الله الأحد ويفند الشرك، شقَّ على أهل مكة كثيرًا، فاجتمعوا

---

[٢] التابع: من يتبع من الجن.

يوما وبعد الاتفاق قابلوا في صورة وفد أبا طالب عمَّ الرسول الكريم ﷺ، وقالوا له: أنت سيد قومنا ونحن نجلّك إجلالًا عظيمًا، وبسبب إجلالنا لك لا نتعرض لابن أخيك بشيء، لكن الأمر الآن قد تجاوز الحدّ. وقد جئناك الآن لتقول له من طرفنا الكلمةَ الأخيرة في هذا الشأن. ثم كرروا الكلام الذي سبق أن قاله لرسول الله ﷺ عتبة أيضا، أي إغراءه بالمنصب الرفيع، وبأجمل امرأة، وبالمال، والثروة، وبالملك. ثم قال له هؤلاء القوم: قل له أن يراعي على الأقل ألا يسبّ آلهتنا. نحن لا نطلب منه أن يؤمن بآلهتنا، وإنما نطلب منه ألا يسبّها. فإن لم يقبل ولا واحدا من هذه الأمور، فاترك نصرته وسنتولى أمره بأنفسنا.

كان أبو طالب رجلًا صالحًا يحب الرسول الكريم ﷺ حبًا شديدًا، لكنه كان يحب سيادته أيضًا حبًا عظيمًا. فنادى الرسولَ الكريم ﷺ وقال له: جاءني اليوم قومُك وقالوا: يا أبا طالب، إنا نراعيك، وبسبب مراعاتنا لك لم نتعرض لابن أخيك حتى الآن، لكن الأمر قد تجاوز الحدّ الآن. وقالوا: إن لم يقبل بأي أمر آخر، فقل له فقط ألا يسبّ آلهتنا. ونحن مستعدون أن نجعله حاكما علينا، وإن أراد مالًا فنحن مستعدون لأن نمنحه المال حتى لا يبقى في العرب أغنى منه، فنحن مستعدون لنُثريه. وإن أراد زوجة حسناء فنحن مستعدون أن نزوّجه بأجمل امرأة. باختصار، نحن مستعدون لتحقيق كل طلبٍ له. وإنما نطلب منه مقابل ذلك أن يمتنع عن سبّ آلهتنا.

وكان لأبي طالب على الرسول الكريم ﷺ أيادٍ عظيمة، فقد ربّاه منذ صغره بحب وحنان بالغَين، ووقف معه في كل ضيق وشدة. فلما رأى الرسول الكريم ﷺ عمّه على هذه الحال، تذكّر مننه فذرفت عيناه الدموع، فقال: "يا عمّاه، أنا لا أطلب منك أن تنصرني، بل يمكنك أن تحالف قومك وتتركني. والله لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري، ما تركتُ ذكر الله الواحد".

انظروا كم كان يقينه وثقته بالله تعالى عظيمًا! مع أن تحريك الشمس من مكانها معجزة عظيمة، لو وقعت لحيّر الإنسان أمرها، لكنه ﷺ قال: "لو أزاحوا الشمس من مكانها وأتوا بها وأوقفوها عندي، ولو حرّكوا القمر من مكانه وأتوا به وأوقفوه عندي، فإن يقيني وثقتي بالله تعالى عظيمة، لدرجة سأعدّ ذلك كله ضربًا من الشعوذة، وسأظل أعترض على عبادتهم للأصنام للأبد، ولن أتوقف عن عملي أبدًا".

هذا المقام من اليقين والتوكل الكامل على الله تعالى، لهو عديم النظير في العالم. لقد قال المسيح الموعود عليه السلام وهو يسرد هذه الواقعة: "عندما نزلت هذه الآيات التي جاء فيها أن المشركين رجس، ونجس، وشرُّ البريّةِ، وسفهاء، وذرية الشيطان، وأنّ آلهتهم وقود النار وحصب جهنم، دعا أبو طالب النبيَّ ﷺ وقال له: يا ابن أخي، قد استشاط القوم الآن غضبًا بسبب سبك وكادوا يُقتلونك وإيايَ، لقد سفَّهتَ عقلاءهم، وسمّيتَ كِبارَهم شَرَّ البرية، واعتبرتَ آلهتهم المعظَّمة عندهم حصبَ جهنم ووقودَ النار، واعتبرتهم جميعا رجسًا وذرية الشيطان. فأنصحك أن تكفّ لسانك، وتمتنع من السباب، وإلا فلا طاقة لي لمواجهة القوم. فقال النبي ﷺ: يا عمّاه، هذا ليس سبًّا، بل هو إظهار الأمر الواقع وبيان الحقيقة في محلها تماما، وهذا هو الأمر

الذي أُرسلتُ من أجله، فإذا كان في هذا السبيل موتي فأنا راضٍ به بكل سرور، فإن حياتي فداء هذا السبيل، ولن أتوقَّف عن إظهار الحق خوفا من الموت. ويا عمِّ، إذا كنتَ تخشى ضعفك وقلة حيلتك وعناءك فأَقِلْنِي ذمتي، فوالله لستُ محتاجا إليك على الإطلاق، ولكنني لن أمتنع من تبليغ أحكام الله أبدًا، فإن أحكام ربي أحبُّ إليّ من نفسي، ووالله لو قُتلت في هذا السبيل لتمنّيتُ أن أُحيا ثم أُقْتَل مرة بعد أخرى في هذا السبيل، فهذا ليس مقام خوف، بل إن غاية سعادتي تكمن في تحمُّل الأذى في سبيل الله سبحانه وتعالى. كان النبي ﷺ يقول ذلك والرقّةُ المفعمة بالصدقِ والنورِ تعلو وجهه الكريم، ولما أنهى كلامه سالت الدموع من عين أبي طالب عفويا لِما رأى من نور الصدق والحق، وقال: كنتُ أجهل حالتك السامية هذه! إن لك حالا عجيبا وشأنًا غريبا! فاذهبْ وواصلْ عملك، وسأنصرك ما استطعتُ ما دمتُ حيا".

وهناك واقعة تدل على عظيم توكّل النبي ﷺ وقد وقعت عند عودته من الطائف. خرج النبي ﷺ وحده إلى الطائف يدعو ساداتها، فبلغوا في صبّ الظلم عليه المنتهى. فعاد إلى مكة، وفي الظاهر لم يكن سبيل إلى دخوله فيها. كان معه ﷺ خادم له فقال له الخادم في قلق: ماذا سيحدث الآن يا رسول الله، ولكن رسول الله ﷺ ظل متوكلا على ربه كل التوكل. روى خادمه هذا وهو زيد بن حارثة ﷺ وقال لما قلت يا رسول الله، كيف تدخل مكة الآن وقد أخرجوك منها؟ فقال ﷺ بمنتهى التوكّل: "يا زيد، سوف ترى أن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرُ دينه ومُظهِرُ نبيه". فأرسل النبي ﷺ إلى سادة قريش يستجيرهم لكي يدخل مكة في جوارهم، فرفض أكثرهم، وفي الأخير أعلن المطعم بن عديّ – وكان شريفاً من ساداتهم – أنه يجيره ويدخله مكة في جواره.

أما وكيف كان توكّل النبي ﷺ على الله أثناء هجرته، فقد ورد أنه لما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة، أعلمَ عليّا ﷺ بخطته، وعهد إليه مهمة فدائية، فقال له: «نم على فراشي الليلةَ، وتَسَجَّ ببُردي هذا الحضرميِّ الأخضر (وقيل: الأحمر، وسُمّي حضرميا لكونه مصنوعًا في منطقة حضرموت باليمن. باختصار، أمر النبي ﷺ هذا الخادمَ الفدائي بأن ينام في سريره في الرداء الذي كان ينام فيه، وطمأنَه مؤكدًا تأييد الله ونصرته له فقال)، نم فيه مطمئنا دون قلق، فلن يضرك العدو بسوء. وكان رسول الله الصادقُ الأمين ﷺ قلقًا بشأن أمانات أهل مكة التي تركوها عنده، فأمر عليّا ﷺ بأن يسلّمها لأصحابها ثم يلحق به. ثم خرج رسول الله ﷺ من بيته، وقد اجتمع فتيان من قريش على بابه، متيقظين، ومستلّين السيوف، ومتعطشين لدمائه، يرصدونه وينتظرون انقضاء هزيع من الليل، لينقضوا على رسول الله دفعة واحدة ويقتلوه، معاذ الله. وكان فيهم أبو جهل بن هشام، الذين كان رأس الفتنة، فقال متكبرا ساخرا: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره صرتم ملوك العرب والعجم، وأنكم حين تُبعثون من بعد الموت كانت لكم جِنان كجِنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم الذبح والقتل. فخرج النبي ﷺ من البيت لينطلق، وقال: «أنا أقول ذلك»، وجعل ينثر

التراب على رؤوسهم وهو يتلو آيات من سورة يس: ﴿يٰسٓ* وَالْقُرْاٰنِ الْحَكِيْمِ * اِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ * عَلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ* تَنْزِيْلَ الْعَزِيْزِ الرَّحِيْمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّآ اُنْذِرَ اٰبَآؤُهُمْ فَهُمْ غٰفِلُوْنَ* لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلٰٓى اَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ* اِنَّا جَعَلْنَا فِيْٓ اَعْنَاقِهِمْ اَغْلٰلًا فَهِيَ اِلَى الْاَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُوْنَ * وَجَعَلْنَا مِنْۢ بَيْنِ اَيْدِيْهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَاَغْشَيْنٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُوْنَ﴾ (يس: ٢-١٠) ومرّ من بين أيديهم دون أن يبصره أحد منهم، وذلك بقدرة الله تعالى. وكانوا بين الحين والآخر يتطلعون ليتأكدوا ويطمئنوا أن محمدًا ﷺ لا يزال نائمًا في فراشه. (السيرة النبوية لابن هشام)

يقول المصلح الموعود ﷺ وهو يتحدث عن هجرة النبي ﷺ وتوكله على الله من مصادر التاريخ: عندما أمره الله تعالى بالهجرة اصطحب أبا بكر وخرج إلى جبل ثور الواقع على مسافة ستة أميال من مكة، واختبأ في غار في قمة الجبل. وفي الصباح لما لم يجده الكافرون في بيته وعلموا أنه قد خرج من بينهم رغم محاصرتهم إياه، خرجوا لتوّهم يبحثون عنه مستعينين بأفضل قصّاصي الأثر في مكة. فوصل بهم إلى مدخل الغار متتبعًا آثارهما، وقال: إذا كان محمد في مكان على الأرض فهو هنا، إذ لا أجد آثار الأقدام بعد ذلك. كان العدو واقفا على رأس الغار ولم يكن مدخله ضيقا حتى يصعب عليهم أن يطلّوا منه إلى الداخل ليروا ما إذا كان بداخله أحد أم لا، بل كان مدخله واسعا. ورغم ذلك لم يصب النبيَّ ﷺ خوف ولا ذعر، بل إن قوته القدسية قد جعلت قلب أبي بكر أيضًا قويًّا بحيث لم يقل كأصحاب موسى ﴿إنّا لَمُدْرَكون﴾ بل كل ما قاله هو: يا رسول الله، لقد اقترب العدو منا جدا بحيث لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا. فقال له النبي ﷺ: "اسكت يا أبا بكر، اثنان اللهُ ثالثهما"، أي لسنا اثنين، بل إن الله معنا، فكيف يمكن أن يرونا؟ وهذا ما حصل بالضبط، فبرغم أن الأعداء كانوا قد وصلوا إلى مدخل الغار إلا أنهم لم يتقدموا ليطلّوا داخله، بل رجعوا متأسفين حانقين.

إذًا، هناك عدة جوانب في هذا الحادث تسترعي الانتباه، أولها: أن أصحاب موسى عليه السلام قالوا مذعورين ﴿إنّا لَمُدْرَكون﴾، وهذا يعني أنهم ظنوا أن فرعون سيقبض على موسى معهم، ولكن توكُّل النبي ﷺ على ربه قد أثّر في صاحبه أيضًا فلم يقل "إنا لمدرَكون" بل قال: لقد اقترب منا العدو بحيث يستطيع أن يرانا. ولكن النبي ﷺ لم يرض بهذا الظن أيضا وقال: "لا تظنّ هكذا، فإننا لسنا وحدنا، بل هناك ذات أخرى معنا وهي إلهنا". (التفسير الكبير)

يقول المسيح الموعود عليه السلام عن هجرة النبي ﷺ وتوكله وشجاعته:

"لقد ظهر صدق أبي بكر الصديق ﷺ عند حلول تلك المصيبة حين حوصر النبي ﷺ. لا شك أن بعض الكفار كانوا يريدون إخراجه، ولكن أكثرهم اتفقوا على الهدف الأصلي وهو قتله. وفي هذا الوضع العصيب قد قدَّم أبو بكر ﷺ نموذج صدقه ووفائه الذي سيبقى أسوة إلى يوم القيامة في ساعة العسرة هذه. إن اختيار النبي ﷺ أبا بكر ﷺ في ساعة العسرة هذه يشكل دليلا قويا على صدقه وعظيم وفائه.(يذكر

حضرته مناقب أبي بكر ﷺ أيضًا). هذا هو حال اختيار نبينا ﷺ أبا بكر ﷺ، كان عنده في ذلك الوقت ما بين ٧٠ إلى ٨٠ صحابيا، بمن فيهم سيدنا علي ﷺ، ولكنه ﷺ لم يختر لرفاقته منهم إلا أبا بكر. ما السر في ذلك؟

الحقيقة أن النبي يرى بعين الله تعالى، ويأتيه الفهم من عند الله تعالى. ولذلك أخبر الله تعالى النبي ﷺ، بطريق الكشف والإلهام، أن أبا بكر الصديق ﷺ هو خير الناس لهذه المهمة وأصلحهم لها.

لقد رافق أبو بكر ﷺ النبي ﷺ في ساعة العسرة تلك، وكان ذلك وقت ابتلاء خطير. وحين مرّ المسيح عليه السلام بمثل هذا الوقت العصيب، تركه تلاميذه وفرّوا، بل إن أحدهم لعنه في وجهه، أما الصحابة الكرام فقد قدّم كل واحد منهم نموذجًا للوفاء الكامل.

والخلاصة أن أبا بكر الصديق ﷺ رافق النبي ﷺ وسانده تمام المساندة، ثم اختبأ النبي ﷺ في غار يُسمّى غار ثور. وكان الكفار الأشرار قد دبّروا الخطط لإيذائه، ثم خرجوا يبحثون عنه حتى وصلوا إلى ذلك الغار. فقال أبو بكر الصديق ﷺ: لقد صاروا الآن فوق رؤوسنا مباشرة، ولو نظر أحدهم إلى أسفل قليلًا لرآنا، ولأُلقي القبض علينا. فقال له النبي ﷺ عندئذ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فتأملوا لفظ (معنا)؛ فقد ضمّ النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ إلى نفسه في هذه المعية، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فلفظ (معنا) يشملهما كليهما، أي: إن الله معك ومعي. لقد وضع الله تعالى النبي ﷺ في كفة، ووضع الصديق ﷺ في الكفة الأخرى.

وكان كلاهما في ابتلاء في تلك الساعة؛ لأنها كانت اللحظة الفاصلة التي إما أن يُوضَع فيها أساس الإسلام، وإما أن يُقضى عليه. وكان الأعداء عند الغار يتداولون آراء مختلفة. فقال بعضهم: فتّشوا هذا الغار، فإن آثار الأقدام تصل إلى هنا وتنتهي عنده. وقال آخرون: كيف يمكن لإنسان أن يمر من هنا أو يدخل هذا الغار؟ فالعنكبوت قد نسجت شبكتها، والحمامة قد باضت.

وكانت أصوات مثل هذه الأحاديث تصل إلى داخل الغار، وكان ﷺ يسمعها بوضوح تام. لقد جاء الأعداء يريدون القضاء عليه، واندفعوا نحوه كالمجانين. ولكن انظروا إلى كمال شجاعته ﷺ؛ فالعدو فوق رأسه، ومع ذلك يقول لرفيقه الصادق الصديق: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وتدل هذه الكلمات بوضوح تام على أنه ﷺ نطق بها بلسانه؛ لأنها تستلزم صوتًا مسموعًا، ولا تكفي الإشارة لأداء معناها. كان الأعداء يتشاورون في الخارج، وفي داخل الغار كان الخادم ومخدومه منشغلين بالحديث أيضًا. ولم يباليا بأن يسمع الأعداء صوتهما. وهذا دليل على كمال الإيمان بالله تعالى وكمال المعرفة به، وعلى الثقة التامة بوعوده".

وللنبي ﷺ في رحلة الهجرة هذه وقائع أخرى يتجلّى فيها التوكل على الله تعالى، وسيأتي بيانها فيما بعد إن شاء الله.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك وسلم، إنك حميد مجيد.

****